في الرفيق الأعلى

للأستاذ دريني خشبه

لن أعفيك يا قلمي الحبيب من أن تذرف دموعك صلاة خالصة على فخر الكائنات ، بعد هذه القرون الطوال التي غبرت منذ أذرفت عيون المؤمنين حينما لحق الروح الكريم بالرفيق الأعلى

ما كان أجلّها لحظات تتصل فيها الأرض بالسموات !

إن لم يكن بد من رفيق في هذا السفر الطويل فما أختارك ! إلا قلبي ودموعي !

لا عليك يا قلمي الحبيب ، فقد تستطيع أن تصم أذنيك عما يجلجل في تيه الزمن ، من هُتاف المجد ، أو أنين الهزيمة ... في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، فما أريد لك إلا أن تصل سالماً إلى ماوراء هذه السنين الألف والثلثمائة والخمسين والإثنتين ، لتشهد فخر الكائنات محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فوق ناقته بأرض عُرَنَة يخطب المسلمين ، بل يخطب البشرية كلها ، قائلاً فيما يقول :

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم[1] فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا[2] ! »

لشد ماوجفت قلوب المؤمنين لدى هذه الكلمة التي أرسلها فخر الكائنات بأرض عُرَنَة في حجة الوداع التي كره بعضهم[1] أن يطلق عليها هذا الإسم فدعاها حجة الإسلام وحجة البلاغ !

لقد نظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد غشيتهم من تلك المبادأة بالوداع غاشية ... ألا ترى إلى الرسول الكريم يتلو عليهم بعد صلاة العصر في اليوم نفسه ما أوحي إليه ثمة من قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » فيسمعها أبو بكر فيبكي ، لأنه يضيفها إلى الكلمة التي قالها الرسول حينما زالت الشمس وهو قائم مقام إبراهيم يخطب ، فيعلم أنهما أمارتان من أمائر الفراق !

* * *

ثم ما هذه النُّوقُ الثلاث والستون ينحرها فخر الكائنات بِمِنَى يا رفاق ؟ ! أتكون عدد الدَّرَج إلى الرفيق الأعلى ؟ أليس قد بلغ الرسول الكريم عامه الثالث والستين من التقويم الهلالي ؟ أليست هذه هي الأمارة الثالثة ؟ لبيك أبو بكر إذن ، ولتبك الأجيال كلها معه ... فوالله لقد ظهرت الأشراط قبل هذا كله ... لم يكن النبي قد حج قط[3] ، فأمر هذه السنة أن يحج ليبين للناس مناسكهم ؛ وكان يعرض القرآن على صاحبه جبريل مرة واحدة كل سنة في رمضان ، لكنه عرضه عليه مرتين في هذه السنة ؛ وكان يعتكف العشرة الأواخر من رمضان لا يكلم الناس إلا رمزاً ، فلأمر ما اعتكف عشرين هذا العام ؟ أليس لأنه العام الأخير ؟

ويحك أيها الرجل محمد بن سيرين فيم رجوت أن تكون قراءتك هي العرضة الأخيرة ؟[3] أكان قلبك يحدثك كما حدث ابن عباس قلبه حينما نزلت : إذا جاء نصر الله والفتح ، فقال : داع من الله ووداع من الدنيا[4] ! ... أجل ... فهي العلامة التي حدث الرسول عنها عائشة ، قال : إن ربي كان أخبرني

(١) بعض الروايات : اسمعوا قولي

(٢) ويروى بهذا الموقف أبدا . وغيره

(١) منهم ابن عباس وطاوس

(٢) يروى أنه (ص) حج مرة أخرى قبل الهجرة والأكثرية على أنه . يحج حجة الوداع

(٣) في طبقات ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ٣ ط ليدن : عن محمد بن سيرين قال : كان جبريل يعرض القرآن على النبي (ص) كل عام مرة في رمضان ، فلما كان العام الذي توفي فيه عرض عليه مرتين . قال محمد : فأنا أرجو أن تكون قراءتنا العرضة الأخيرة !

(٤) في البخاري ج ٦ أن ابن عباس قال لعمر وقد سأله عن سورة النصر : أجل رسول الله أعلمه إياه

بملامة فى أمتى فقال إذا رأيتها فسبح بحمد ربك واستغفره ، فقد رأيتها ... وقرأ إذا جاء نصر الله ...

***

ثم هذا المدلج إلى البقيع متكئا على ذراع مولاه أبي مُوَيهبةَ حتى إذا بلغ مراقد السابقين إلى الجنة ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، توقف قليلاً ثم قال يكلمهم : السلام عليكم أهل المقابر ، لِيَهْنِ لكم[1] ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ... ثم أقبل على مولاه يقول له : يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، خُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة ؟ فيقول أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فيقول له فخر الكائنات : لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة !

ثم يأخذ فى الاستغفار للنائمين فى التراب ، أستغفر الله ، بل للنائمين فى روضات الجنة ، أولئك الذين استجابوا لنداء السماء الذى يَبُثّه الله بلسان محمد ! فيا للوداع ويا للوفاء يا رسول الله !

أهذا فقط ؟ كلا يا رفاق ، القلم والقلب والدموع ! فقد حدّث عقبة بن عامر الجُهَنى قال : إن رسول الله صلى على قتلى أُحُد بعد ثمانى سنين كالمودّع للأحياء والأموات ثم اطّلع المنبر فقال : إنى بين أيديكم فَرَط[2] ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه وأنا فى مقامى هذا ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تُنافسوا فيها[3]

ففى هذا الكلام معنى مما خاطب به رسول الله شهداء البقيع فقد هنأهم بما أصبحوا فيه مما أصبح الناس فيه ... وذكر إقبال الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ... وهو بعد صلاته على شهداء أحد يخطب الناس فلا يخشى عليهم أن يشركوا ، بل يخشى عليهم الدنيا أن ينافسوا فيها !

***

كان الرسول عند زوجه ميمونة عندما بدأ بالرسول شَكْوُه الذى تُوُفّى فيه[1] ، فذهب إلى زوجه عائشة ، وكأنها رأت أثر ما به من وعكة ، فقالت مداعبة : واراسأه ! فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال مداعباً : وددت أن ذلك يكون وأنا حى فأصلى عليك وأدفنك . فقالت عائشة غَيْرَى : أو كأنك تحب ذلك ؟ لكأنى أراك فى ذلك اليوم مُعْرِساً ببعض نسائك فى بيتى . فتبسم النبى أيضاً ، وتمادّ به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استُعِزّ به وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمَرّض فى بيتى فأذِنّ له فخرج بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتى .

وقد سئل ابن عباس عن هذا الرجل الآخر من هو فقال : إنه على بن أبى طالب ، ولكنها كانت لا تقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع !

وذهب الرسول إلى الفضل بن عباس فأخذ بيده حتى جلس على المنبر وهو معصوب الرأس ثم قال : نادِ فى الناس ، فاجتمعوا إليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستَقِد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له ، أو حلّلنى ، فلقيت الله وأنا أطيبُ النفس ، وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنى حتى أقوم فيكم مراراً

أى والله يا رفاق ، القلمَ والقلبَ والدموع ، إن رسول الله وفخر الكائنات يخشى أن يلقى الله ولأحدٍ عنده حق لم يأخذه منه ، فهو يعطى ظهره لمن يرى أن يستقيد منه ، وهو يريد أن يحلله من لا يريد أن يأخذ حقه حتى يلقى الله وهو أطيب النفس . ثم هو يرى أن ذلك كله غير مغنٍ من الله شيئاً ... فوارحمتاه لنا نحن يا رفاق !

(١) رواية الطبرى ج٣ وفى غيرها : ليهنئكم وليهنِء لكم

(٢) الفرط بتحتين الذى يتقدم الواردة فيهيء لهم الأرشاء والدلاء ويمدر الحياض ويستقى لهم (عن الجوهرى)

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٠

(١) هذا من كلام عائشة رضى الله عنها

ثم صلى النبي الظهر وعاد فجلس على المنبر ليحاسبه الناس ، فقال له واحد منهم : يا رسول الله إن لى عندك ثلاثة دراهم ، فأمر النبي الفضل أن يعطيه إياها ؛ ثم قال النبي : يا أيها الناس من كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة . فقام رجل فقال يا رسول الله عندى — أى فى ذمتى — ثلاثة دراهم غللتها فى سبيل الله ، قال ولم غللتها ، قال كنت إليها محتاجا ، قال خذها منه يا فضل ... ثم قال الرسول يا أيها الناس من خشى من نفسه شيئاً فليقم أدعُ له ، فجعل الناس يقومون يعترفون بذنوبهم بين يدى رسول الله يدعو الله لهم ، حتى قام أحدهم فقال : يا رسول الله إنى لكذاب وإنى لمنافق ، وما من شيء إلا قد جنيته . فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحت نفسك أيها الرجل ! فقال رسول الله يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا وصيّر أمره إلى خير ، فقال عمر كلمة ، فضحك رسول الله ثم قال : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان !![1]

فهل عرفتم هذا يا رفاق ؟ رسول الله يجلس ليحاسب نفسه وليحاسبه الناس وليحاسب الناس على ثلاثة دراهم ، لأن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ! ورسول الله لا يدع لليأس من رحمة الله سبيلاً إلى نفوس المؤمنين ؛ فهو يعرض على من يخشى من نفسه شيئاً أن يقوم فيدعو له ! وهذا عمر بن الخطاب يتميز على الرجل من الغيظ فيضحك رسول الله ويداعبه ، كما داعب عائشة من قبل . فمن منا حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ؟ ومن منا عمل حساباً لفضوح الآخرة الذى ينكشف بين يدى الله لا فضوح الدنيا الذى ينكشف بين أيدى الناس ؟!

ربّ أين نحن اليوم ؟!

* * *

إسمعوا إلى الرسول الكريم وهو يناجى ربه ويسأله الشفاء يا رفاق !

واسمعوا إلى أزواجه يداعبنه لما يرين من شكواه فتقول إحداهن : لقد اشتكيتَ فى شكوك شكوى لو أن إحدانا اشتكته لخافت أن تجد عليها ، فيتبسم ويقول : أو لم تعلمى أن المؤمن يُشدَّد عليه فى مرضه ليُحط به خطاياه ؟

واسمعوا إليه وهو يطلب ماء يصب عليه من سبع آبار عسى أن تخف عنه بُرحاء الحمى كى يدخل فيخطب الناس موصياً بأسامة وبَعْث أسامة لما سمعه من لغط الناس عن تأمير أسامة !

واسمعوا إليه وهو فى المسجد يوصى المهاجرين بالأنصار ، ويأمر « بسد هذه الأبواب الشوارع[1] فى المسجد إلا باب أبى بكر ؛ فإنى لا أعلم امرأ أفضل فى الصحابة من أبى بكر »

واسمعوا إليه يأمر أن يصلى بالناس أبو بكر ، فتراجعه عائشة فى ذلك ، متذرعة بشتى الحجج ، مشيرة أن يصلى بالناس عمر ، فيغضب رسول الله ويذكر صواحب يوسف ! ويصلى بالناس أبو بكر . فإذا سئلت عائشة بعد عن سبب مراجعتها رسول الله قالت : « وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً . ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبى بكر ! »[2]

* * *

وهذا هو أبو بكر يصلى بالمؤمنين الصبح فى هدأة الفجر ... وهذا هو رسول الله قد خرج عاصباً رأسه لينظر إلى أمته وليفرح بها واقفة بين يدى الله فيتفرج المصلون لمرأى رسول الله وقد أوشكوا أن يفتتنوا من الفرح بفخر الكائنات ، فيعرف أبو بكر أن الناس لم يفعلوا ذلك ولا يصح أن يفعلوه إلا لرسول الله فينكص عن مصلاه ، فيدفع رسول الله فى ظهره ويقول : صلّ بالناس ، ويجلس إلى جنبه فيصلى عن يمين أبى بكر ، فإذا قضيت الصلاة أقبل رسول الله على الناس رافعاً صوته وهو يقول : أيها الناس سُعّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإنى والله ما تمسّكون علىّ بشىء ، إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن » ، ويفرح المسلمون بصحة توهموها فى رسول الله ، ويفرح معهم أبو بكر ، ويستأذن أن يلحق أهله بالسنح . فاليوم يوم بنت خارجة ! »[3]

(١) الطبرى سنة إحدى عشرة ص ١٩١

(١) فى ابن هشام فى اللافظة
(٢) رواية البخارى الجزء السادس
(٣) ابن هشام